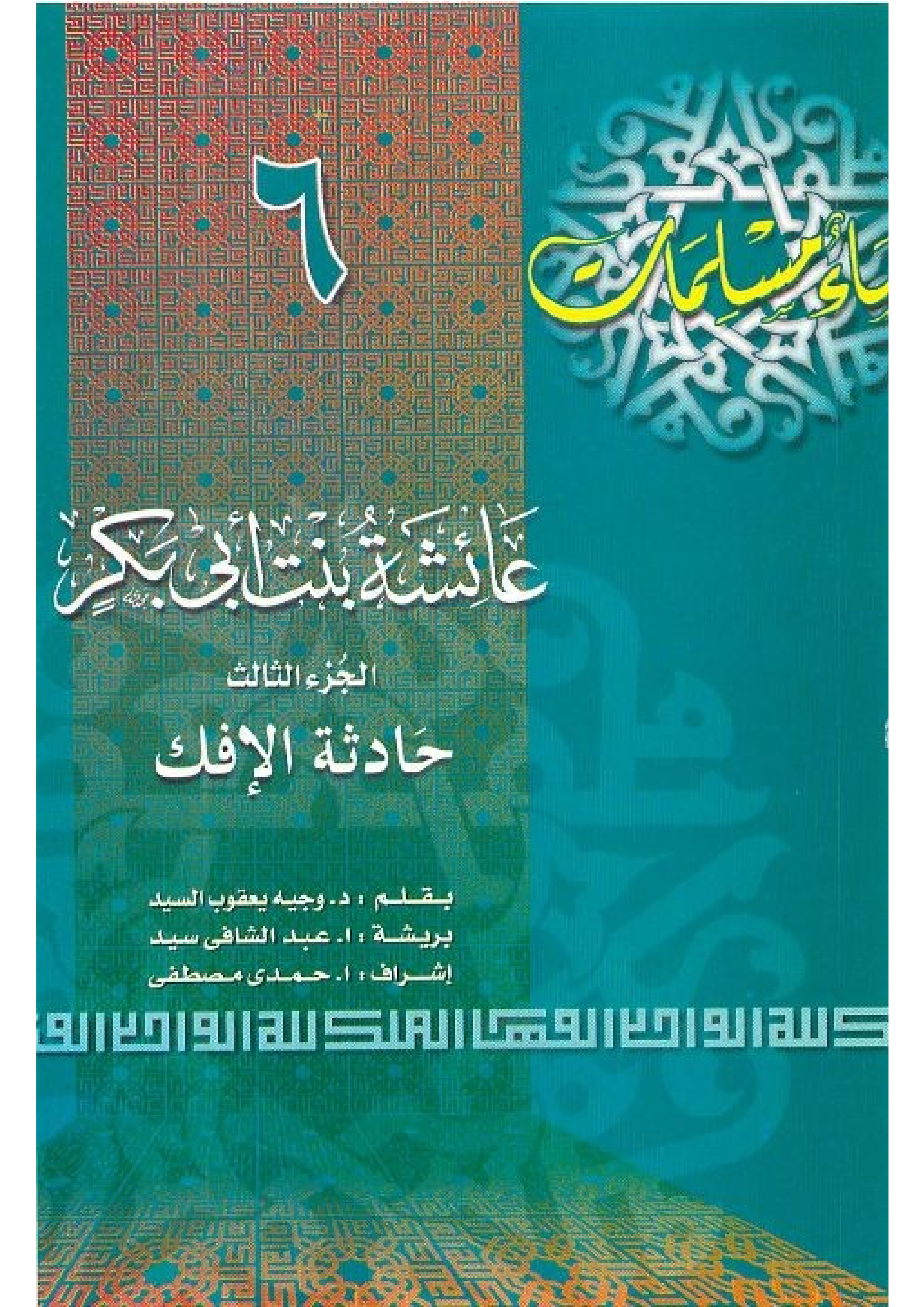
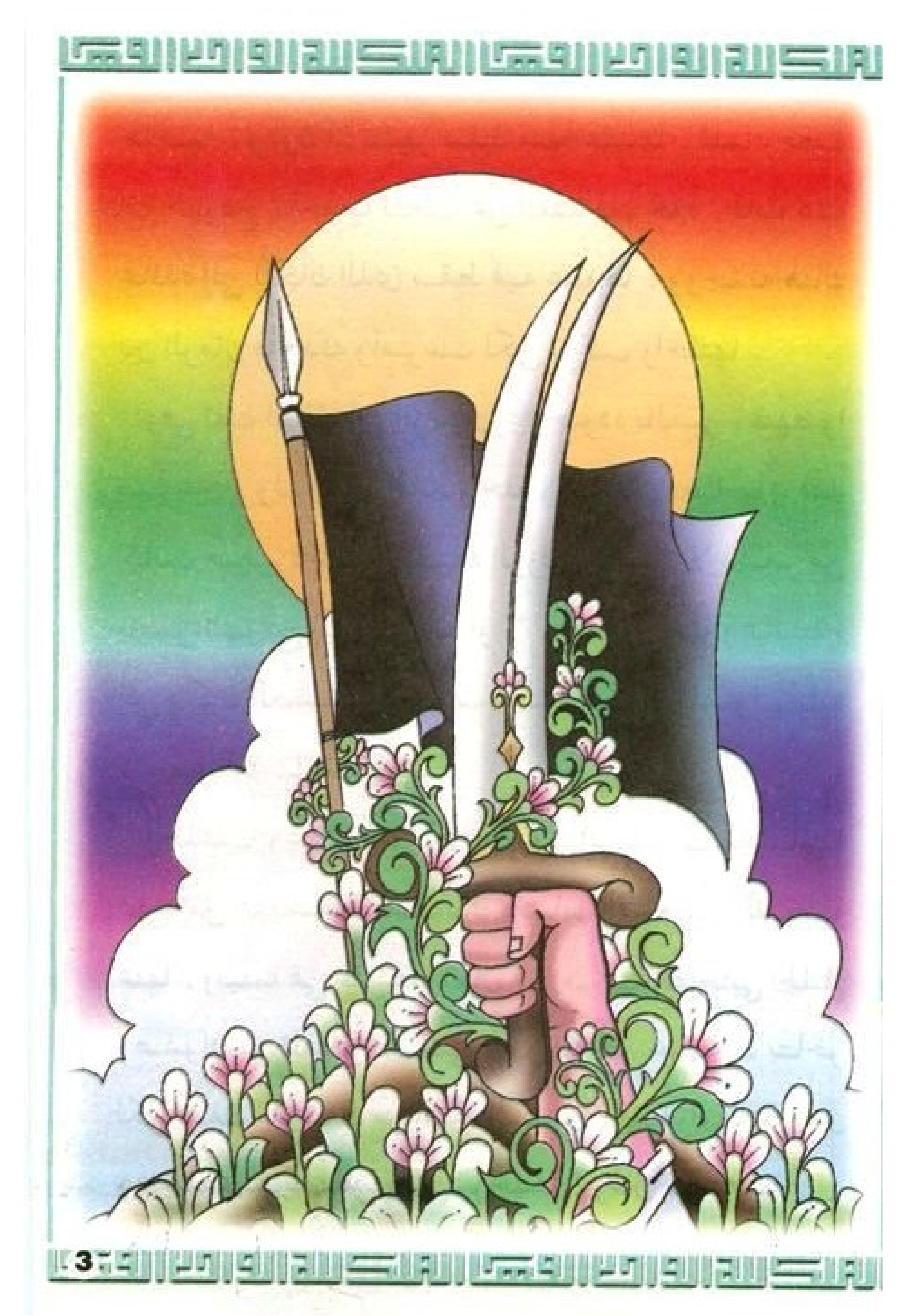

نساء مسلمات
٦
عائشة بنت أبي بكر
الجزء الثالث
حادثة الإفك
بقلم : د. وجيه يعقوب السيد
بريشة : ا. عبد الشافى سيد
إشراف : ا. حمدى مصطفى

عاشتْ (عائشةُ رضىَ اللَّهُ عنها) أسْعَدَ أيامِها بجوارِ زوجِها ﷺ ، الذى منحهَا الحبَّ والأمانَ ، وكانتْ هى بالنسبةِ لهُ الزوجةَ والحبيبةَ التى تخففُ عنهُ كلَّ همومه وتزيلُ آلامهُ ، ولكنَّ هذا الهدوءَ تحوّلَ فجأةً إلى عاصفةٍ كادتْ أنْ تدمِّرَ كلَّ شيءٍ : البراءةَ والحبَّ والذكرياتِ ، لكنَّ اللَّهَ (تعالَى) تداركَ رسولَهُ ﷺ فى الوقتِ المناسبِ ، وأنزلَ الوحْىَ ليردَّ لـ (عائشةَ) الطَّاهرةِ اعْتبارَها ويبرِّئَ ساحتَها من التهمَةِ البشعةِ التى حاولَ المنافقونَ والمشركونَ أنْ يلْصقوها بها ظلمًا وعدْوانًا .

ففى العامِ السادسِ للهجرةِ ، خرجتْ (عائشةُ رضىَ اللَّهُ عنها) مع الرسُولِ ﷺ فى غزوةِ بنى المصْطَلَقِ ، وانتصرَ الرسولُ ﷺ نصرًا مؤزَّرًا على اليهودِ ، وسارَ بجنوده عائدًا إلى المدينةِ المنورةِ فى وقتٍ متأخرٍ من الليلِ ، فأمرَ جنودَه أن يسْتريحوا بعضَ الوقتِ ، قبلَ أنْ يُواصلوا السيرَ مرةً أخرَى .

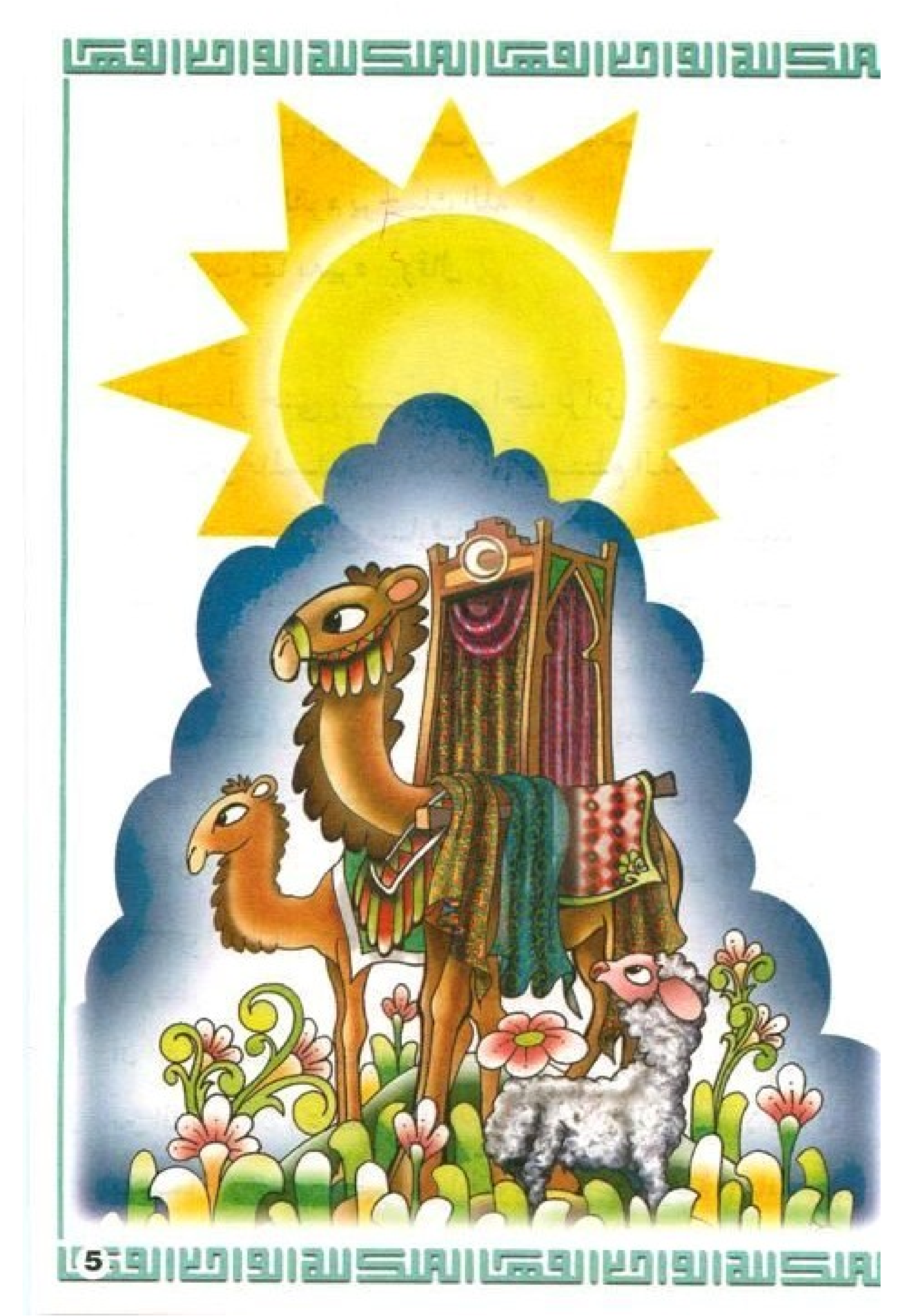
ونزلتْ (عائشةُ) من هودَجِها ومضتْ لقضاءِ بعضِ



حاجَتَها ، ودونَ أنْ تشعرَ سقطَ منها عقدُها ، فلمَّا رجعتْ إلى الهودجِ ، أخذتْ تبحثُ عنِ العقدِ فلمْ تجدهُ ، فأسرعتْ عائدةً إلى المكانِ الذى سقطَ فيهِ عقدُها ، ووجدتهُ هناكَ بينَ الرمالِ فأخذتهُ وأسرعتْ لكىْ تركبَ راحلتَها .

وفى تلكَ الأثناءِ أمرَ الرسولُ ﷺ جنودَه بالسيرِ ، فنهضُوا مُسْرعينَ ، ولمْ يشعرْ قائدُ راحلةِ (عائشةَ) بغيابِها ، فقدْ كانتْ صغيرةَ السنِّ خفيفةَ الوزنِ ، بحيثُ لا يشعرُ منْ يحملُ الهودجَ إنْ كانتْ به أوْ لا ، فلما رجعتْ (عائشةُ) إلى مكانِ العسكرِ وجدتِ الجنودَ قدِ انطلقُوا ، وأنهُ لا سبيلَ أمامَها للَّحاقِ بهمْ .

وجلستْ (عائشةُ) مكانَها بعدَ أنْ تلفَّفتْ بجلبابِها على أملِ أنْ يشعرَ المسلمونَ بغيابِها فيعودُوا للبحثِ عنها ، وبينما هى على هذا الحالِ ، إذْ مرَّ بها الصحابىُّ الجليلُ (صفوانُ بنُ المعطلِ السلمى) ، وكانَ منْ عادتهِ أنْ يتأخرَ لكىْ يلتقطَ ما يسقُطُ منْ أمتعةِ المسلمينَ ، فلما رأى أمَّ المؤمنينَ (عائشةَ) تعجبَ منْ بقائِها وحْدَها ، وقالَ فى دهشةٍ :



- إنا لله وإنا إليه راجعون ، أمُّ المؤمنين (عائشةُ) ؟ ما أخرَكِ عن القومِ يرحمُكِ اللهُ ؟

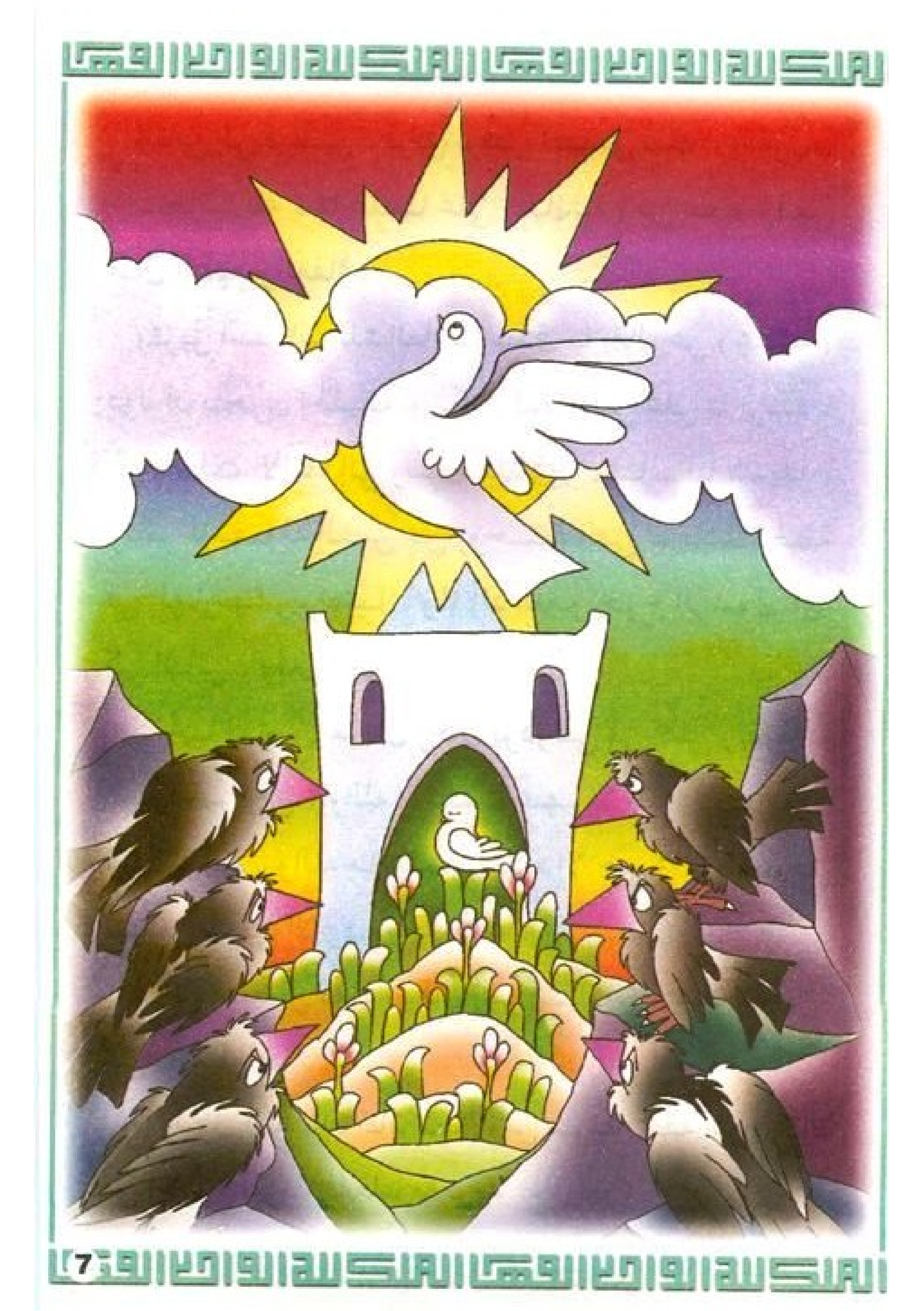
ثم قرّب لها بعيرهُ ، وقال :

- اركبي .

واستدار حتى ركبتْ ، ثمَّ أخذ برأس بعيره ، وأسرع كي يلحقَ بالمسلمين ، لكنهُ لم يستطعِ اللّحاق بهم إلا بعدَ أنْ أصبحوا على مشارف الوُصُول ، في وقت الظهيرة ، حيثُ نزلَ المسلمون لكي يستريحوا من وهجِ الشمسِ ، ولمْ يشعرُوا بغياب (عائشة) إلا بعد أنْ أنزلوا الهودجَ ، وبحثَ عنها رسولُ اللَّه ﷺ فلم يجدْها بداخله .

ولمْ يمضِ وقتٌ طويلٌ ، حتى كانَ (صفوانُ بنُ المعطلِ) قد لحقَ بالعسكرِ فأنزلَ أم المؤمنين (عائشةَ) إلى هودجها ، ومضى هو إلى حال سبيله .

ونظرَ (عبدُ اللَّهِ بن أبيِّ بن سلول) إلى ما حدث ، فوجدَ أن الفرصَةَ قد لاحتْ أمامهُ لكي يستغلَّ هذا الموقفَ ، فأشاع بينَ الناس ، أن (عائشةَ) ما تأخرتْ هي و (صفوانُ) إلا لعلاقة بينهما ، وانتشرَ الخبرُ بين الجنود بسرعةٍ غريبةٍ ، فانقسم



النَاسُ إلى فريقيْنِ ، فريقٍ يرفضُ تصديقَ ذلكَ ، ويقولُ :

ـ حاشا للّه ، ما علمنَا على (عائشةَ) من سوءٍ ، فهي مثالُ الطُّهْرِ والعفاف .

وفريقٍ استجابَ للشائعاتِ وصدَقَ ما يقالُ عنْ (عائشةَ) دونَ أنْ يتحرَى الحقيقةَ أو يكونَ لديه دليلٌ على ما يردِدهُ .

ووصلت الأنباءُ إلى رسولِ اللّه ﷺ ، فتألمَ ألمًا شديدًا ، وتأثرَ لما يقولهُ الناسُ عنْ زوجتهِ التى لمْ يشكَ لحظةً فى طهارتهِا وبراءتهِا ، ولما زادَ اللَّغْوُ خرجَ الرسولُ ﷺ إلى الناسِ ، وقالَ لهمْ :

ـ يأيها الناسُ ، ما بالُ رجالٍ يؤذوننِي فى أهلِي ويقولونَ عليهِم غيرَ الحقّ ؟ واللّه ما علمتُ عنهمْ إلاَّ خيرًا ، ويقولونَ ذلكَ لرجلٍ ، واللّه ما علمتُ عليهِ إلا خيرًا ، وما يدخلُ بيتًا من بيوتى إلا وهو معى !

فقامَ (سعدُ بنُ معاذٍ) وقالَ وهو يشيرُ إلى (عبدِ الله بن أبيٍّ بن سلُولٍ) :

يا رسولَ اللَّه ، إنْ كانَ من الأوسِ ضربْنَا عنقَهُ ، وإن كانَ من الخزرجِ أمرتنَا ففعلنَا ما تريدُ .

وعلَت الأصواتُ واختلفَ الناسُ حتى نزل الرسولُ ﷺ من مكانه وأسكتَهُمْ وخلاَ ببعضِ أصحابه ليستشيرهمْ ، وبدأَ الرسولُ ﷺ باستشارة (أُسامةَ بنِ زيد) ، فقالَ (أسامةُ) :

ـ يا رسولَ اللّه ، أهلُكَ ، ولا نعلمُ منهمْ إلا خيراً ، وهذا الكذبُ والباطلُ . أمَّا (علىُّ بنُ أَبى طالب) ، فقدْ أشفقَ على النبىِّ ﷺ ، وأحزنهُ أنْ يراهُ متأثراً إلى هذه الدرجة فقالَ تطييباً لهُ :

ـ يا رسولَ اللّه ، إِن النساءَ غيرَها كثيرٌ ، وإن شئتَ أنْ تتأكَّدَ منْ ذلكَ فاسألْ جاريتَها فإنها ستَصْدُقُكَ .

وجاءتْ جاريةُ (عائشةَ رضى اللّهُ عنها) ، وقالتْ :

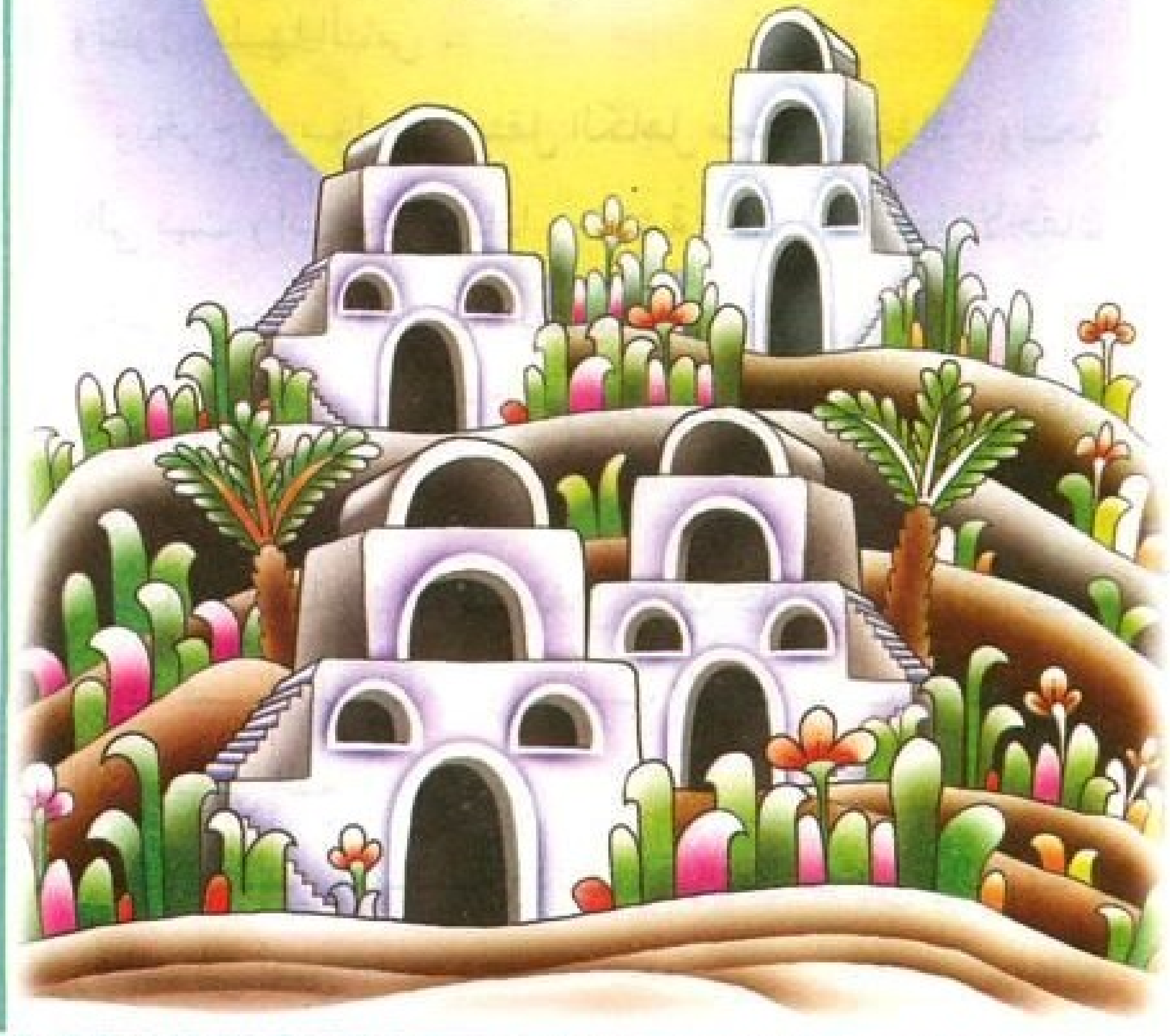
ـ واللّه ما أعلمُ على (عائشةَ) إلا خيراً .

وبرغْمِ ثقة الرسول ﷺ فى زوجته ، إلا أنهُ تأثَّرَ بما سمعَ ، ولمْ يستطعْ أنْ يخفىَ تأثُّرَهُ ، فقدْ ظهرَ ذلكَ فى معاملته لزوجته ، فقدْ كانَ الرسولُ ﷺ بمجرد دخوله بيت (عائشةَ) يشيعُ جواً من البهجةِ والسعادة ، ويستجيبُ لمرحِ زوجته الحسناء ومداعبتها في وُدٍّ ومحبة ، أما الآنَ فها هو ذا يدخلُ عليها وهى مريضةٌ ، وكانتْ لا تعلمُ بما

يدورُ حَوْلَها ، فلمْ يخبرْها أحدٌ بذلكَ ، ويسلِّم عليها ويكتفى بسؤالِه عن أحوالِها .

وأحستْ (عائشةُ) بشىءٍ من الفتورِ فى علاقةِ زوجِها بها ، فطلبتْ أن تذهبَ إلى بيتِ أبيها فأذنَ لها الرسولُ ﷺ بذلكَ .

وفى بيتِها سمعتْ (عائشةُ) ما يشاعُ عنها لأولِ مرةٍ ، فلمْ تتمالكْ نفسَها من البكاءِ ، وفى هذه اللحظةِ عرفتْ



سرَّ الجفْوةِ من رسْولِ اللَّه ، وراحت تقولُ لأمّها وهَى تبكى :

ـ يغفرُ اللّهُ لك ، تحدَّثَ الناسُ بما تحدّثوا به ، ولا تذكرين لى منْ ذلكَ شيئاً .

فضمتها أمها إلى صدْرِها وهى تقولُ :

ـ أىْ بنيةُ ، هونى على نفسك ، فوالله لقلما كانت امرأةٌ حسناءُ عند رجلٍ يحبها ، ولها ضرائرُ ، إلاَّ وتقوّلُوا عليها وتقولَ عليها الناسُ .

ويخرجُ الرسولُ ﷺ مثْقَلَ الكاهلِ محزونَ الفؤاد ، ويتجهُ إلى بيتِ (أبى بكرٍ) فإذا (عائشةُ) هناكَ مقرَّحةَ الأجْفان تبكى ، حتى كادَ البكاءُ يقتُلُها .

والتفتَ الرسولُ ﷺ إلى (عائشةَ) فتأثَّرَ لبكائها ، وقالَ فى حُزْنٍ :

ـ يا (عائشةُ) ، إنه قدْ بلغنى عنك كذَا وكذَا ، فإنْ كنت بريئةً فسيبرّئُكَ اللَّهُ ، وإنْ كنت أَلَمَمْت بذنبٍ فاستغْفرى اللَّهَ وتوبى إليه .

ولم تحتملْ (عائشةُ) ذلكَ ، فالتفتتْ إلى والديْها ، وقالتْ فى أسى :

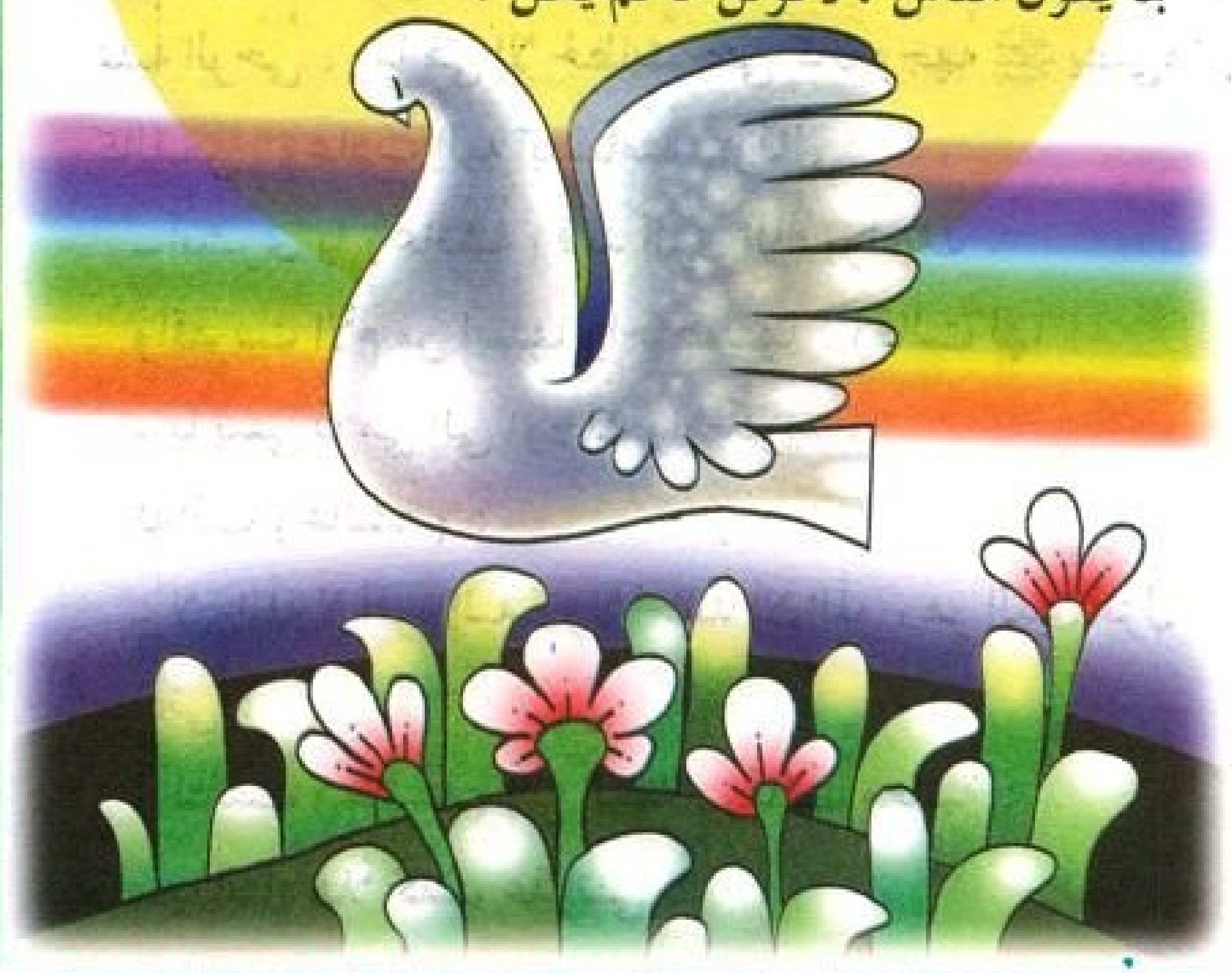
ـ ألا تجيبان رسولَ اللَّه ؟

فقالاَ والحزنُ يعتصرهُمَا :

ـ واللَّه ما ندرى بِمَ نجيبُ !

وأخذت الدموعُ تنهمرُ على خديْهَا ، وقالتْ فى إصرارٍ :

ـ واللَّه ، لقد عرفتُ أنكم قدْ سمعتمْ بهذَا حتى استقرَّ فى نفوسكُمْ وصدقتُمْ به ، فإنْ قلتُ لكمْ إنى بريئةٌ ـ واللَّهُ يعلمُ أنى بريئةٌ ـ لا تصدقونىِ فى ذلكَ ، ولئنْ أنا أقررتُ بما يقولُ الناسُ ، لأقولنَّ ما لمْ يكنْ .



وحاولتْ (عائشةُ) أنْ تعزِّى نفسَها ، فتذكرتْ (يعقوبَ عليه السلامُ) وما أصابهُ من الحزنِ واعتصرَ قلبُهُ من الألمِ حتى ابيضَّتْ عيناهُ من الحزنِ ، وقالتْ وهى تبكى :

ـ إنى واللَّه ما أجدُ لى ولكمْ مثلاً إلا كما قالَ أبو يوسفَ :

﴿ فصبرٌ جميلٌ واللَّهُ المستعانُ على ما تصفونَ ﴾ .

ثم أسرعتْ إلى حُجرتها وجلستْ على أريكتِها وهى تبكى بحرقةٍ ومرارةٍ .

وقبلَ أنْ يخرجَ الرسولُ ﷺ من بيت (أبى بكرٍ) نزلَ عليهِ الوحْىُ ، وما هى إلا لحظاتٌ حتى كانَ وجْهُهُ ﷺ يضىءُ كالقمرِ ، وعادتْ إليه ابتسامتُهُ ، وقالَ :

ـ أبْشرِى يا (عائشةُ) فقدْ أنزلَ اللَّهُ براءتك .

واقتربتِ الأمُّ من ابنتِها واحتضنتْها ، وقالتْ لها :

ـ يا بنتى قومى إلى زوجكِ واشكُريه .

فقالتْ (عائشةُ) :

ـ لا واللَّهِ لا أقومُ إليه ، ولا أحمدُ إلا اللَّهَ ، هو الذى أنزلَ براءتى .

والتفتتْ (عائشةُ) إلى أبيها ، وقالتْ معاتبةً :

ـ يا أبتاهُ هلاَّ كنتَ عذرْتنى ؟

فقالَ :

ـ أيُّ سماءٍ تُظلُّنى ، وأىُّ أرضٍ تقلُّنى إنْ قلتُ بما لا أعلمُ ؟

أمَّا النبىُّ ﷺ فقدْ أحزنَهُ وآلمهُ ما عانتْهُ زوجتُهُ وما كابدَتْهُ طوالَ هذه الفترة ، وخرجَ إلى المسجد ، وتلاَ على الناسِ قولَهُ (تعالى) :

﴿ إنَّ الَّذين جَاءُوا بالإفْكِ عُصْبَةٌ منكُمْ لاَ تحسَبُوهُ شرًا لَّكُمْ بَلْ هُو خيرٌ لَّكُمْ لكلِّ امرِئٍ منهُمْ مَا اكْتَسَبَ من الإثْمِ والَّذى تولَّى كِبْرَهُ منهُم لهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ * لَوْلاَ إذْ سمعتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمنُونَ والْمُؤْمنَاتُ بأنفُسِهِمْ خيْرًا وقَالُوا هَذَا إفْكٌ مبينٌ * لَوْلاَ جاءُوا عليهِ بأرْبعَةِ شُهداءَ فإذْ لم يأْتُوا بالشُّهداءِ فأولئكَ عندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذبُونَ * ولَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ورحْمَتُهُ فى الدُّنْيَا والآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فيمَا أَفَضْتُمْ فيهِ عذابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

(النور: ١١ ـ ١٤)



لقد برأ الله ساحة (عائشة) الطاهرة من فوق سبع سموات ، وكان لابد من هذه المحنة الصعبة لكى يتعلم المسلمون فى كل مكان وزمان أن يواجهوا الشائعات وألاَّ يخوضوا فيها بلا علم أو دليل ، وإلا أهلكوا أنفسهم بأيديهم .

ولعل فى هذه القصة ما يؤكد بشرية الرسول ﷺ ، فهو لا يعلم الغيب ، وقد تأثر بما سمع ، واضطرب كما يضطرب الناس ، وتشكك كما تشككوا ، لكنه فى نهاية الأمر رسول يتلقى من الله الوحى والرسالة لكى يصحح له الخطأ ، ويعصمه من الزلل ، ويوضح ذلك للناس كافة .

وبقى المسلمون فى كل مكان يتلون هذه الآيات التى تظهر براءة (عائشة رضى الله عنها) مما نسب إليها ، وترسم لهم المنهج الصحيح فى مواجهة الشائعات ، فهل تعلموا الدرس ؟

(تمت)

الكتاب القادم

عائشة بنت أبى بكر (٤)

(المرجع الأول فى الحديث والسنة)

رقم الإيداع : ٢٠٠١/٣٦٤٣
الترقيم الدولى : ٥ ـ ٤٧٥ ـ ٢٦٦ ـ ٩٧٧